الرعاية الاجتماعية
فى القدس فى العصر المملوكى
"٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م"

تأليف
د. محمد سالم بكر باعامر
أستاذ مساعد تاريخ العصور الوسطى
بقسم التاريخ – كلية الآداب والعلوم الإنسانية
بجدة – جامعة الملك عبد العزيز

الرعاية الاجتماعية فى القدس فى العصر المملوكى "٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م"

مقدمة

حظيت مدينة بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك – كما حظيت غيرها من المدن التى خضعت لحكمهم – بكثير من أوجه الرعاية الاجتماعية ، كتعبير عن السياسة العامة التى سار عليها حكام هذه الدولة لترسيخ قيمة دولتهم كقوة مدافعة عن الإسلام والمسلمين فى مواجهة الأخطار التى تعرضت لها البلاد ؛ وفى نفس الوقت للحصول على تأييد المعاصرين لهم ، وتغيير نظرتهم إليهم ، عن طريق تحقيق التكافل الاجتماعى ونجدة الملهوف ، ومساعدة المحتاج، وترسيخ القيم الإنسانية وتحويلها من عادات يحكمها العرف إلى عمل منتظم تحكمه قواعد وترعاه مؤسسات شرعية بما يتفق مع الشريعة الإسلامية ، وهو ما عُرف لدى الفقهاء باسم المصالح المرسلة التى تتحقق من جلب منفعة للخلق ودفع مضرة فى الدنيا والدين[1] .

وسنركز حديثنا على تسعة مجالات هى

رعاية الأيتام القصر وإدارة أموالهم – تعليم الأيتام الفقراء – بيوت الصوفية والرعاية الاجتماعية ـ الرباع والرعاية الاجتماعية ـ الخانات والرعاية الاجتماعية – توفير الماء العذب – الرعاية الصحية – الحمامات – سداد دين المدينين ٠

---

(١) الإمام محمد أبو زهرة : ابن تيمية ، حياته وعصره ، آراؤه وفقهه ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٧، ص ٤٩٥ ٠

رعاية الأيتام القصر وإدارة أموالهم

فمن الأضواء الجديدة التى تلقيها مجموعة وثائق الحرم القدسى الشريف • والتى تم الكشف عنها فيما بين سنتى ١٩٧٤ و١٩٧٦ فى المتحف الإسلامى بالقدس ، أن الرعاية الاجتماعية امتدت لتشمل أموال اليتامى القصر بوجه عام • واليتامى بلا وصى بوجه خاص • وكذلك اليتامى الذين هم بلا مورد مالى • فبعد وفاة عائلهم ، وخاصة الذين ليس لهم أوصياء من أقاربهم ، كانت توضع ثرواتهم أو ما يؤول إليهم من إرث تحت نظر القاضى الشافعى فى القدس لعدة أغراض منها الإنفاق عليهم ، وتوفير سبل الحياة الكريمة لهم ، وتعليمهم ، وكسوتهم وإطعامهم ، والتوسعة عليهم فى المواسم المختلفة ، وإلى غير ذلك من الأمور المعيشية ، والأهم من ذلك هو استثمار هذه الأموال وفق الشرع، إلى حين أن يصلوا سن الرشد فيقوم بتسليمهم مستحقاتهم ، كذلك كان هذا القاضى يقوم بالإشراف على أوقاف الأيتام التى يوقفها بعض الآباء على ذريتهم من بعدهم ، ويجعل النظر عليهم لهم ، أو يحدد لهم نصيبًا منها ، إذ تتحدث الوثائق رقم ١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٤٨، ١٤٩ عن وجود بيت المال المعمور فى القدس برئاسة ناظر أو مشرف أو وكيل أو شاد، وتبين الوثيقة رقم ٣٧٦ الإجراءات التى تتبع فى ديوان بيت المال • كما تشير الوثيقة رقم ٥٣٥ إلى وجود ديوان تابع لبيت المال "يسمى ديوان المواريث الحشرية" يتولى حصر تركات من يموت بلا وارث وتكون تركته بذلك من نصيب الدولة ، أو من يموت ويترك ورثة لا يستحقون الإرث كله ، فيدخل بيت المال ضمن الورثة سواء كانوا من المسلمين أم من أهل الذمة ، كما كان لبيت المال مندوبون يمثلونه لدى حصر تركات الأشخاص المتوفين ، أو من هم فى مرض الموت[1] •

وتنبغى الإشارة إلى أن السلطان الظاهر بيبرس ، أصدر تعليماته فى سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م، إلى القضاة ونوابهم بأن لا ينفرد أحدٌ من الأوصياء على اليتامى بوصية

---

(١) المقريزى "تقى الدين أحمد بن على " : السلوك لمعرفة دول الملوك"، القاهرة ، ١٩٤٢-١٩٧١م ، جـ ١ ، قسم ٣ ، ص ٨٦٤ ؛ د• العسلى "كامل جميل" وثائق مقدسية تاريخية ، عمان ١٩٨٣م ، جـ١ ، ص ٤٩ •

خوفا من أن "يكبر اليتيم فلا يجد شيئا ولا تقوم له حجة على موجوده ، أو يموت الوصى فيذهب مال اليتيم فى ماله" ، وأن يكون هناك مجلس هو أشبه بالمجلس الحسبى الموجود فى بعض البلاد فى عصرنا الحديث ، تسجل فيه أموال اليتامى ، ويتكون من نواب القاضى الذين "يحاققون على المصروف" واستمر الحال منذ ذلك التاريخ على هذا المنوال وحتى نهاية العصر المملوكى [١] .

والحقيقة أن كتب الحسبة المعاصرة أبدت حرصا شديد على أموال اليتامى هؤلاء ، وحثت المحتسب أن يعمل كل ما فى وسعه للمحافظة عليها وعدم التلاعب بها ، وطالبته بضرورة التشديد على دلالى العقارات بألا يبيعوا شيئا لصبى أو يتيم إلا بإذن وصيه ، ومن يخالف هذا يحذف من جملة الدلالين [٢] . كما شددت على التجار فى التعامل مع اليتامى القصر ، وأنه ينبغى للتاجر ألا "يعامل فى البيع أربعة : الصبى والمجنون والعبد والأعمى ، لأن الصبى غير مكلف وكذا المجنون وبيعهما باطل فلا يصح بيع للصبى"[٣] .

ولما كانت عملية استثمار أموال اليتيم مستحبة فقد وجب الحرص فيها أيضا ، حيث أوصى بعض الفقهاء المعاصرين من له الوصاية على اليتيم بقوله : "إن ولى اليتيم لا تجب عليه المبالغة فى الاستنماء ، وإنما الواجب أن يستنمى قدر ما لا تأكل النفقة والمؤن المال . ولكن الزيادة من شكر النعمة" [٤] .

وأول ما نلاحظه على وثائق الحرم القدسى الشريف الخاصة برعاية الأيتام هو أنه فى حالة عدم وجود وصى على هؤلاء الأيتام ، فإن أم الأيتام كان لها الأولوية فى الوصاية على أولادها القصر ، لأنها أشفق عليهم وأرفق ولديها من الغيرة عليهم والعناية بأمرهم مما لا يتوافر على الوجه الأكمل عند غيرها من ذوى الأرحام ما دامت أهل للوصاية . وهذا ما

---

(١) المقريزى : نفسه ، جـ١ قسم ٢ ، ص ٥١٢ .

(٢) ابن الأخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة ، القاهرة ، ١٩٦٢م ، ص ٥٢ .

(٣) السبكى "تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب" : معيد النعم ومبيد النقم، القاهرة ، ١٩٤٨م، ص٦٤.

(٤) ابن الضياء القرشى "أبو البقاء محمد بن أحمد ت سنة ٨٠٤هـ" : تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف ، مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية برقم ١٢٨ تاريخ، ورقة ١٠٨ب ؛ تقى الدين الفاسى : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام بيروت ١٩٨٥م ، جـ١، ص ٣٤٧ ؛ ابن فهد "النجم عمر" : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، الرياض ، ١٩٨٠م جـ٤ ، ص ٥٢٧-٥٢٨ .

تؤكده الوثيقة رقم ٦١٣ والمؤرخة فى ١٩ ذى القعدة سنة ٧٩٦هـ، والتى تم فيها إسناد الوصية لأم بحضور أحد أعوان نائب السلطنة بالقدس الشريف وتم إبرامها بإذن من القاضى ، وبذلك تكتسب القوة القانونية ، وعلى الوصية توقيع ثلاثة شهود[1] . وفى حالة الشك فى أهليتها فإنه كان لدى قاضى القضاة الشافعى موظف يدعى "أمين الحكم" هو المسئول عن رعاية أمثال هؤلاء الأيتام وغيرهم ، يقوم بالإنفاق عليهم من تركة والدهم ، فقد جاء فى الوثيقة رقم ١٩٢ المؤرخة فى ٥ محرم سنة ٧٩٠هـ أن أمين الحكم هذا قام بتسليم أم طفلين يتيمين "فرض ولديها محمد وعلى اللذين فى حضانتها عن مدة أربعة شهور كوامل آخرهم شهر صفر من سنة تاريخه مائة درهم وسبعين درهما نصفها خمسة وثمانون درهما" ؛ كما أن الوثيقة رقم ١٨٣ المؤرخة فى ٤ رمضان سنة ٧٩٠هـ تفيد أن هذه المرأة نفسها قبضت من "أمين الحكم" مبلغا وقدره ١٢٠ درهما "، وذلك فرض ولديها محمد وعلى عن مدة شهرين كاملين آخرهما سلخ رمضان المعظم". وبذلك يتضح لنا أن ما كان يخص كل طفل فى الوثيقة الأولى كل شهر كان ٢١٫٢٥ درهما بينما زاد هذا المبلغ إلى ٣٠ درهما فى كل من شهرى شعبان ورمضان ، بما يفيد أن "أمين الحكم" قام بالتوسعة على هؤلاء اليتامى بزيادة الحصص المخصصة لهم فى الشهور التى تتطلب التوسعة ومنها شهرى شعبان ورمضان[2] .

وتلقى الوثيقة رقم ٦٤٩ والمؤرخة فى ذى القعدة سنة ٧٩٣هـ / ١٠ أكتوبر ١٣٩١م ضوءا جديدا على مدى حرص السلطة المملوكية بتجنيب اليتامى القصر كل ما من شأنه الإضرار بمصلحتهم ، فقد قام أحد الأوصياء على أيتام المرحوم البدر بن مزهر الذى كان كاتبا للسر بالشام ، والمقيمين بالقدس بتقديم "قصة" أى عرض حال إلى القاضى الشافعى يطلب بيع "الجوار الأربعة والمملوك بلبان والبغلة الشقرا المخلف ذلك عن والد الأيتام المذكورين .. لما فى ذلك من رفع الكلفة وخوف الهلاك والفساد ولاستغنا الأيتام عن استبقايهم .." فطلب القاضى من الوصى إثبات صحة ذلك ، فأحضر الشهود الذين شهدوا بين يدى القاضى "أن المصلحة للأيتام المذكورين يومئذٍ فى بيع الرقيق والحيوان

---

(١) د. العسلى : وثائق مقدسية ، جـ٢ ، ص١٢٥ ؛ Von Donald, p. Little "The Significance of the Haram Documents for the Study of Medieval Islamic History" Der Islam, Band 57 Heft I, 1980, pp. 202-205 .

(٢) د. العسلى : نفسه ، جـ٢ ص١٠٥-١٠٧ .

المذكورين أعلاه، وأن الأيتام مستغنين عن استبقاء ذلك لهم وأن عدم بيعهم فيه ضرر على الأيتام المذكورين وفيه كلفة عليهم". فأذن القاضي بالبيع شريطة أن يتم عمل مزايدة، وألا يباعوا إلا بسعر المثل على الأقل[١]٠

وفى هذا المجال أيضا قامت الأوقاف بدور هام فى رعاية الأيتام وبخاصة ممن ليس لهم أى مورد مالى ، فقد جاء فى الوثيقة رقم ١٨٤ والمؤرخة فى ٢ مضان سنة ٧٨٩هـ أن إحدى الأرامل قد قبضت من "أمين الحكم العزيز" والجابى على وقف المدرسة الصلاحية بالقدس الشريف من الدراهم الفضة معاملة الشام المحروس ثلاث ماية درهم وخمسة وسبعين درهما ، وذلك "ما هو فرض أولادها ٠٠ وهم عمر وأبى بكر وسلما وسارة عن شهر رجب"[٢]. ومن الطبيعى أن تختلف النفقة على مثل هؤلاء الأيتام باختلاف ريع الأوقاف المخصصة للإنفاق على اليتامى ممن هم بلا تركة أو مورد مالى آخر.فمن ضمن مجموعة الوثائق هناك ١٧ قصة "هى بمثابة عرض حال"، وعليها تأشيرة موافقة قاضى القضاة الشافعى على الظهر أو على أحد أطراف الوثيقة ، وهى توضح بما لا يدع مجالا للشك كيف أن هذا المجتمع كان قادرا على تحقيق مطالب الفقراء من أعضائه ، كما أنها توضح كيف أن مؤسسة الوقف كانت مسئولة عن أفراد ذلك المجتمع[٣] ٠

تعليم الأيتام الفقراء

أما عن تعليم الأيتام ، فقد حظى جميع الأيتام بجميع طوائفهم الدينية فى مدينة بيت المقدس فى ذلك العصر بكل الرعاية التى تمثلت فى تعليمهم منذ الصغر ، وتوفير الأماكن المخصصة لتعليمهم فى "المكاتب" أو "الكتاتيب" ، والتى قامت بما تقوم به مدارس المرحلة الابتدائية فى عصرنا من تعليم الأطفال ، هذه المكاتب أنشئت بهدف تعليم الأيتام والفقراء علاوة على صرف "المعاليم" النقدية والعينية لهم ولمعلمهم من الأموال الموقوفة عليهم ٠ وجدير بالملاحظة أن تعليم هؤلاء الأطفال وبخاصة الصبية المسلمين كان كثيرا

---

(١) Donald p. Little : "The Fourteenth – Century Court Records from Jerusalem Concerning The Diposition of Slaves By Minors" ,**Arabica** vol. 29, 1982, pp. 17-20.

(٢) د٠ العسلى : نفسه ، جـ٢ ، ص١٠٩ ٠

(٣) Donald p. Little "The Signifcance of the Haram. "p. 202 .

ما يتم داخل أحد الأماكن الملحقة بإحدى المدارس ، مثل: المدرسة الطازية ، أو المدرسة الجوهرية ، أو داخل الزوايا والتى كان فى معظمها أماكن لتعليم أيتام المسلمين فى العصر المملوكى ، حيث يقصدها هؤلاء الصغار للتعليم على أيدى المؤدبين بها • أو داخل المساجد وبخاصة المسجد الأقصى فى مكان خصص لهم بالمكان المجاور لجامع المغاربة من جهة القبلة (١) • أو فى المكاتب الملحقة بأحد الأسبلة، وعرفت لذلك بمكاتب السبيل ، مثل: المكتب الذى بناه الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام فى عصر الناصر محمد بن قلاوون ضمن مجموعته المعمارية التى كانت تضم مدرسة وخانقاه وسبيلا إلى جوار الرباط المنصورى قلاوون بالقدس(٢) ، أو فى المكاتب المنفصلة عن الأسبلة وعرفت بمكاتب الأيتام مثل: "مكتب باب الناظر" الذى سمى بذلك لوقوعه بجوار باب الناظر أحد أبواب المسجد الأقصى (٣) • والمكتب الذى أنشأه الأمير سيف الدين أقطمر ، والذى جاء ذكـــره فى الوثيقة رقم ٣ من وثائق الحرم القدسى الشريف المؤرخة فى ١٥ ربيع الآخر سنة ٧٨١هـ ، ورسم أن يستقر فيه الشيخ برهان الدين الناصرى على "الجامكية" أى المرتـــب على قراءة الأيتام وهى فى كل شهر ثلاثون درهما ، يأخذها من ريع الأوقاف التـــى تم وقفها على هؤلاء الأيتام(٤) • أو المكتب الذى نشر فإن برشام نص وقفيته التى جاء فيها : "بسملة •• رحم الله من ترحم على الفقير الذى بنا هذه البقـــعة المباركة وجعلها مكتـــبا على أولاد المسلمين عامة لتعليم القرآن فيها • وقف عليها الدار المعـــروفة بدار أبى نعامة تحت القبو مقابل باب المسجد الأقصى عمره الله تعالى ويكون أجرته تصرف به إلى المعلم والدار فى يده لأجرة تعليم الأيتام والمساكين وما فضل من عمارة المكتب والدار وإشعال القنديل تحت القبو والماء للصبيان لغسل الألواح والشرب بشرط أن يكون المعلم من أهل الدين ، والصلاح وهذا وقفا مؤبدا مخلداً لا يغير ولا يبدل" (٥) •

(١) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٤٣٧٦ ، جـ٣ ، ورقة ١٨٠ ؛ مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، القاهرة ، ١٢٨٣هـ ، جـ٢ ص ٥٣٤-٦٠٣ •

(٢) ابن فضل الله العمرى : نفسه ، جـ٥ ورقة ٩٣ •

(٣) مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص ٥٧٤ •

(٤) د• العسلى : وثائق مقدسية ، جـ١ ، ص ١٩٥-١٩٦ •

(٥) Van Berchem (Max) : **Materiaux pour un Corpus Inscripitionum Arabicarum, Syrie Du sud, Jerusalem ville,** vol. 25, 1922, p. 214 .

أما عن المكاتب الخاصة بالمسيحيين فالحقيقة أن المصادر والمراجع التى تحدثت عن بيت المقدس لم تشر إلى ذلك ، ولكن من المرجح أنها لم تختلف عن غيرها فى البلدان الأخرى ، حيث كانت لهم مكاتبهم الخاصة لتعليم أبنائهم ، ويتم الإنفاق عليها من قبل أبناء الطوائف المسيحية المختلفة بالقدس[١] ٠

وعن مكاتب اليهود فقد كان يلتحق بها الأطفال من سن الخامسة أو السابعة وحتى سن الثانية عشرة والثالثة عشرة ٠ وكانت جماعة اليهود كلها تشارك فى دفع تكاليف تعليمهم ، وكانت ملحقة بالكنيس الخاص بهم ٠ أما عن اللغة المستعملة فيها فقد كانت هى اللغة العربية ، وأحيانا يكتبونها بحروف عبرية [٢] ٠ ومن المرجح أيضا أنه كان للأكاديمية اليهودية – التى ظهرت منذ أيام الدولة الأيوبية فى القدس – دور فى الإنفاق على أيتام اليهود ، لما توافر لها من الموارد المالية التى كانت تأتيها من المغرب العربى والبلدان الأوربية على أيدى بعض الربانين الجوالين بما يكفل لها الاستمرار فى أداء هذه الرسالة [٣] ٠

ولم يكن التعليم قاصرا على تعليم اللغة العربية ، وآداب الأديان وقواعدها ، بل شمل تعليمهم كثيرا من الآداب العامة ، كذلك كان لهذه المكاتب دور هام فى الرعاية الصحية للأطفال الذين يترددون عليها ، ورعايتهم داخل المكتب وخارجه وبخاصة عند غدوهم ورواحهم [٤] ٠

بيوت الصوفية والرعاية الاجتماعية

كما تظهر الرعاية الاجتماعية فى القدس طوال العصر المملوكى فى أشد صورها فيما نالته المؤسسات الصوفية من عناية فائقة ، وحبس الأوقاف الضخمة عليها ، حتى صارت

---

(١) Alexander Max : **Studies in Jewish History and Booklore,** New York 1944, p. 29 ; Ben Sason, **Jewish Society through the Ages,** New York, 1973, pp. 148, 150-160.

(٢) د٠ على السيد على : القدس فى العصر المملوكى ، القاهرة ، ١٩٨٦م ، ص ١٦٨ ٠

(٣) محمد الحبيب بن خوجة : يهود المغرب العربى ، نشر جامعة الدول العربية ، تونس ١٩٧٣ ، ص ٣٣ ٠

(٤) د٠ على السيد على : نفسه ، ص ١٥٦-١٦١ ، حيث هناك العديد من أوجه الرعاية والعناية التى تمتع بها الأطفال فى هذه "المكاتب" بما يفوق ما نراه حاليا فى كثير من أرقى مدارس العصر الحديث مع الفارق فى الإمكانيات والتقدم التكنولوجى ٠

ميزة من مميزات دولة سلاطين المماليك(١) • هذه المؤسسات اتخذت لها عدة أسماء ، مثل: الخانقاوات ، والربط ، والزوايا وبعضها عرف بالمدارس • فمن أمثلة الخانقاوات الشهيرة فى القدس: "الخانقاه الصلاحية" التى أسسها السلطان صلاح الدين الأيوبى وجعلها دارا للصوفية ، وتاريخ الوقفية هو ٥ رمضان سنة ٥٨٥هـ ، والنص الذى بين أيدينا هو المثبت فى السجل رقم ٩٥ من سجلات المحكمة الشرعية فى القدس فى الصفحات من ٤٢٤ إلى ٤٢٨ ، والذى يبدأ بذكر العقارات الموقوفة ويصفها ويبين حدودها ومشتملاتها • وتحدد الوقفية بعد ذلك الأشخاص المستفيدين من الوقفية وهم السادة "المشايخ الصوفية الشيوخ والكهول والشبان المتأهلين والمجردين من العرب والعجم" • ثم تذكر الوقفية شروط السكن والإقامة ، وتبين الواجبات التى ينبغى عليهم القيام بها(٢) •

والخانقاه الدوادارية أو دار الصالحين ، أوقفها الأمير علم الدين أبو موسى سنجر الدويدار الصالحى سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م ، وجعلها للعرب والعجم من المتصوفة • ولقد نشر فان برشام نص حجة الوقف الخاصة بها على النحو التالى : "بسملة •• أمر بإنشاء هذه الخانقاه المباركة المسماة بدار الصالحين العبد الفقير إلى الله تعالى عبد الله بن عبد ربه ابن عبد البارى سنجر الدوادارى الصالحى ووقفها ابتغاء وجه الله تعالى على ثلاثين نفرا من الطائفة الصوفية من العرب والعجم منهم عشرون نفرا عزابا وعشرة مزوجون مقيمون بها لا يظعنون عنها صيفا ولا شتاء ولا ربيعا ولا خريفا إلا لحاجة وعلى ضيافة من يرد إليها من الصوفية مدة عشرة أيام ووقف عليها قرية نير (هكذا) نبالا من القدس الشريف وقرية حجلا من أريحا وفرن وطاحون وعلوهما بالقدس ومصبنة وست حوانيت ووراقة بنابلس وثلاث بساتين وثلاث حوانيت وأربع طواحين ببيسان ووقف ذلك على هذه الخانقاه"(٣) •

---

(١) د• على بن حسين السليمان : علاقة مصر بالحجاز زمن سلاطين المماليك ، رسالة ماجستير بجامعة القاهرة ١٩٧٠ ، ص١٥٦ •

(٢) د• العسلى : وثائق مقدسية ، جـ١ ص ٨١-٩٤ •

(٣) **Jerusalem Ville,** vol. 25, p. 214 .

ومن الربط نسمع عن الرباط المنصورى الذى أنشأه السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م وأوقفه على الصوفية فى بيت المقدس بوجه خاص ، وباقى زوار المدينة من فقراء المسلمين بوجه عام ٠ وكذلك رباط علاء الدين البصير (ت٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م) ناظر الحرمين ، أى الحرم القدسى الشريف وحرم الخليل ، والرباط الكردى الذى أوقفه الأمير سيف الدين كرد أحد كبار أمراء المماليك سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م [١] ٠

ومن أمثلة المدارس المدرسة التى تنسب إلى السلطان قايتباى ، والتى قام أستاذنا الدكتور عبد اللطيف إبراهيم بنشر الوثيقة الخاصة بها وهى برقم ٨٨٧ والمحفوظة بأرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة ، والمؤرخة فى الحادى والعشرين من شهر شوال سنة ٨٨١ هـ ، والذى يهمنا من هذه الوثيقة أنها بعد أن حددت الأوقاف المنتشرة فى أنحاء فلسطين ، فقد نصت الوثيقة على أن يقيم بالمدرسة "ستون صوفيا يصرف لهم تسعمائة درهم شهريا ، لكل منهم خمسة عشر درهما ٠٠" ثم تذكر الوثيقة ما كان يجب أن يتم من توسعة على النازلين فى شهور رجب وشعبان ورمضان من كل عام ، حيث خصص لهذه التوسعة ألفى درهم [٢]، فضلا عن أن المبالغ التى تم تخصيصها من ريع الوقف كانت كفيلة بأن توفر لكل صوفى وصوفية مستوى معقولا من المعيشة ، بالإضافة إلى ما كان يصرف لهم من الخبز واللحم يوميا والكسوة فى المناسبات المختلفة ٠

هذا بالإضافة إلى أن الخدمات التى قامت بها بيوت الصوفية لم تكن قاصرة على النازلين بها فحسب ٠ فقد جاء فى وثيقة وقف الأمير تنكز نائب السلطنة ببلاد الشام أن يتم الصرف "إلى كل واحد من الصوفية الواردين على الصوفية المقدم ذكرهم فى مدة عشرة أيام من حين وروده عليهم فى كل يوم منها نصف درهم ونصف رطل من الخبز ويزود عند سفره بخمسة دراهم ويقتصر فى كل شهر على عشرة من الواردين..". وكذلك كان الحال بالنسبة للنساء الصوفيات القادمات إلى القدس ، فقد جاء النص فى نفس الوثيقة على أن يقوم ناظر الوقف بالصرف "إلى كل واحدة من الفقيرات الواردات إلى الرباط المذكور مدة عشرة أيام من حين ورودها فى كل يوم منها ربع درهم فضة وثلث

(١) د٠ على السيد على : نفسه ، ص ١٥٦ ٠

(٢) لمزيد من المعلومات عن هذه الوثيقة راجع : د٠ عبد اللطيف إبراهيم : وثيقة السلطان قايتباى ، دراسة وتحليل المدرسة بالقدس والجامع بغزة ، القاهرة ١٩٦١ ؛ د٠ على السيد على : نفسه ، ص ١٥٤-١٥٥ ٠

رطل من الخبز ويقتصر فى ذلك على عشر من الواردات إلى الرباط المذكور من غير زيادة عددهن ويقدم الفقيرات الغريبات على الفقيرات من أهل القدس ٠٠"[١] ٠

كذلك كفلت بعض بيوت الصوفية هذه المآكل والمأوى للمحتاجين من الصوفية من أهل القدس وغير النازلين بهذه المؤسسات ، من ذلك ما جاء فى الوثيقة رقم ١٣ والمؤرخة فى مستهل شهر صفر سنة ٧٧٧هـ من مجموعة وثائق الحرم القدسى ، وفيها يطلب أحد الصوفية من قاضى القدس باعتباره مسئولا عن الأوقاف أن يصرف له ولأسرته من الرباط المنصورى صدقة عبارة عن رطل خبز كل يوم ، وعلى الهامش الأيمن للوثيقة جاءت موافقة القاضى والذى قرر له ولأسرته فى كل يوم أربعة أرغفة فى سابع صفر سنة سبع وسبعين وسبعمائة"[٢] ٠ كما جاء فى الوثيقة رقم ١٠ من مجموعة الحرم القدسى وهى بلا تاريخ ، وفيها يطلب أحد المشتغلين بالعلم من القاضى الشافعى أن يوفر له مسكنا لأنه "من حملة كتاب الله تعالى ومن أهل العلم الشريف وسؤال المملوك من صدقات مولانا القاضى أيده الله تعالى بعز الطاعة أن يكون للمملوك منزلا بمدرسة مولانا القاضى أعزه الله تعالى من جملة السادة الفقهاء أسوة من نزل منهم بها ويغتنم مولانا القاضى الدعاء من المملوك ومن عايلته فى الأماكن المشرفة بالقدس الشريف والله تعالى أن يؤيده بمنه وكرمه ٠٠" وقد جاء رد القاضى على ظهر الوثيقة بتاريخ "عشرين بقين من شهر صفر سنة سبعين وسبعماية" بقوله : "إن لم يكن قد استكمل بالرباط المبنى لساكنيه بالقدس الشريف عشرون فقيها فيستقر بالرباط المذكور وإن كان قد استكمل فبها شرط الواقف فمن توفى منهم أو توجه لسكن بغير القدس الشريف فيستقر عوضه ويعين له سكن بالرباط المذكور٠٠"[٣] ٠

وقدمت بعض بيوت الصوفية الرعاية اللازمة للنساء اللاتى طلقن أو هجرن حتى يتزوجن أو يرجعن إلى أزواجهن ، صيانة لهن ، ولنضرب على ذلك مثالا بالرباط الذى

---

(١) د٠ العسلى : وثائق مقدسية ، جـ١ ، ص ١١٨ ٠

(٢) المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢١٠-٢١١ ٠

(٣) المصدر السابق نفسه ، جـ١ ، ص٢١٢-٢١٤ ٠

أنشأه الأمير سيف الدين تنكز ، والذى جاء ذكره ضمن الوثيقة المثبتة فى السجل رقم ١٩٢ المؤرخ سنة ١٠٢٠هـ من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس حيث جاء فيها : "وأما الرباط المجاور للمدرسة المشار إليها بأعاليه فقد وقفه الواقف المسمى تقبلها الله منه على اثنتى عشرة امرأة مسلمات دينات خيرات صالحات عجايز خاليات عن الأزواج فقيرات مقيمات فى الرباط المذكور تكون إحداهن شيخة لهن وأخرى قيمة للرباط المذكور وبوابة وعلى الفقيرات الواردات إلى هذا الرباط وعلى الشيخة المشار إليها أن تأم (هكذا) بهن فى الصلوات الخمس وفى صلوات التراويح فى ليالى شهر رمضان المعظم من كل سنة .. "[١] .

وينبغى أن نشير إلى أن بيوت الصوفية قد استقبلت المهاجرين إلى القدس من شتى الأنحاء بسب الظروف السياسية التى ألمت بالعالم الإسلامى مشرقه ومغربه ، ليقضوا فيها ما تبقى من أعمارهم بدافع من روح التقوى والرغبة الخالصة فى الزهد فى الدنيا ، والحقيقة أن من يطالع كتب التراجم الخاصة بعصر سلاطين المماليك سيقف على حشد هائل لمن هاجروا إلى القدس ، والبلدان التى هاجروا منها ، ولقد وجد الوافدون كل الظروف مهيأة للإقامة فى القدس من مأوى وكساء وطعام ورواتب نقدية من ريع الأوقاف الضخمة التى حبسها سلاطين وأمراء المماليك وغيرهم من أهل الخير واليسار ، بالإضافة إلى الرواتب الضخمة التى خصصها سلاطين المماليك لكل من يتولى وظيفة لتدعيم المذهب السنى من قضاء وإمامة وخطابة وغيرها[٢] .

كما تجب الإشارة إلى أن بيوت الصوفية هذه كمنشآت لم يكن دورها قاصرا على ما قدمته للنازلين بها من مأوى وغذاء وكساء ، وبعض المساعدات الاجتماعية الأخرى التى تمت الإشارة إليها ، بل إنها أتاحت كثيرا من فرص العمل سواء للنازلين بها أوالقائمين عليها ، نذكر من ذلك على سبيل المثال ما جاء فى وقفية السلطان الأشرف قايتباى من أنه خصص لقارئ الحديث ثلاثون درهما شهريا ، وكذلك مفرق الربعة الشريفة وخازن

---

(١) المصدر السابق نفسه جـ١ ، ص ١١٦ .

(٢) السخاوى "شمس الدين محمد بن عبد الرحمن" : التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة ، القاهرة ١٩٥٧ ، جـ٣ ، ص٧١٥-٧١٦ .

الكتب الذى خصص له عشرة دراهم شهريا ، ثم البواب والمزملاتى والفراش والوقاد ولكل منهم ستون درهما شهريا ، ثم كاتب غيبة الصوفية وله عشرة دراهم ، والمباشر وله أربعون درهما شهريا ، ثم الشاد والجابى ولكل منهما مائة درهم شهريا ، هذا إلى جانب ما تذكره هذه الوثيقة من نصيب كل منهم من الخبز فى كل يوم[١] ، وكذلك الذين قاموا بتشييدها • كما لم يهمل الواقفون لهذه المنشآت الرعاية الصحية الشاملة للنازلين بها والقائمين عليها ومن معهم من أصحاب الوظائف ، على أن هذه الرعاية لم تشمل بالطبع كل هذه المنشآت بل شملت الكبير منها فقط ، حيث كان يخصص ناظر الوقف رجلين: أحدهما عارف بالطب خبير بمعالجة الأبدان ، والثانى عارف بصناعة الكحل "طب العيون" .. على أن يحضر كل منهما كل يوم لمباشرة المرضى[٢] •

كذلك تنبغى الإشارة إلى أن أبناء أهل الذمة من يهود ومسيحيين قد وجدوا فى معابدهم وأديرتهم وكنائسهم الكثير من أوجه الرعاية الاجتماعية التى لقيها المسلمون فى منشآتهم بالمدينة المقدسة ، وكانت تجمع لها التبرعات والهبات وتوقف عليها الأوقاف من أبناء الطوائف المختلفة ، وكما سبقت الإشارة بذلك •

الرباع والرعاية الاجتماعية

وتأتى الرباع كواحدة من المنشآت المعمارية الضخمة التى لعبت دورا فى مجال الرعاية الاجتماعية فى بيت المقدس فى العصر المملوكى • فإذا كان سلاطين وأمراء المماليك وأهل الخير واليسار قد حبسوا الكثير من الأوقاف على المؤسسات الصوفية ، والتى نزل بها الصوفية رجالا ونساء ، وأجريت عليهم الرواتب النقدية ، والعينية باعتبارهم يمثلون شريحة كبيرة نوعا ما من سكان مدينة بيت المقدس فى ذلك العصر ، فإن هناك الكثير من الجهود التى بذلت لبناء العديد من "الرباع" وهى ما يمكن أن نسميها فى عصرنا الحالى بالمجمعات السكنية الضخمة أو المساكن الشعبية زهيدة الأجر • وهى التى انتشرت فى القدس فى ذلك العصر ، وكانت تخدم غرضين معاً ، أولهما توفير السكنى الرخيصة

---

(١) د• عبد اللطيف إبراهيم : وثيقة السلطان قايتباى ، ص٤١١-٤١٢ •

(٢) د• على السيد على : القدس وما به من مصادر ، ص١٦٦ •

لشريحة ضخمة من سكان المدينة وبخاصة من أرباب الحرف والصناعات المختلفة ، والمعروف أن هذه الطبقة تمثل الطبقة الدنيا فى المجتمع ، وفى نفس الوقت تمثل أغلبية السكان ٠ أما الغرض الثانى من إنشاء تلك "الرباع" فهو وقفها على المؤسسات العامة مثل: "الربط" و"المكاتب" و"المدارس" ، "والمياضئ أو المطاهر" وغيرها من جهات البر المختلفة[١] ٠

كما تبرز أوجه الرعاية فى تصميم تلك الرباع ، فأهم خاصية تميزت بها الرباع فى ذلك العصر هى الحرص كل الحرص على ضرورة وجود صحن أو فناء مكشوف يتوسط كتلة المبنى ، وتلتف حوله بقية الوحدات المعمارية ، الرئيسية منها والثانوية ، كى تستمد منه معظم حاجتها من الإنارة والتهوية ، ثم تستمد القليل الباقى من الطرق والشوارع الخارجية ٠ والملاحظ أن ذلك الصحن أو الفناء كان هو الوحدة الهامة أو بالأحرى كان هو نواة تصميم مساقط جميع العمائر على اختلاف أنواعها[٢] ٠ وكان ذلك الصحن أو الفناء يؤدى للربع ولغيره من العمائر عدة وظائف بالغة الأهمية منها : تلطيف حدة الضوء الذى يشتد كثيرا فى الأقطار العربية ومنها مصر ؛ ومنها أنه كان بمثابة مرشح للهواء الذى كثيرا ما يحمل الغبار والأتربة فى كثير من أوقات السنة ، كذلك كان هذا الفناء يساعد كثيرا على تخفيف ضوضاء الشوارع والطرق ٠ كما أنه كان يختزن الدفء فى الشتاء إذا أغلقت أبواب الربع والفتحات الخارجية لتمنع مرور تيارات الهواء ٠ وكان يحدث عكس ذلك فى الصيف فيساعد على تلطيف شدة القيظ ، ويزيد من نفعه لهذا الغرض إذا ما زرعت فيه بعض الأشجار أو توسطته نافورة أو حوض ماء ، وهو ما تميزت به الرباع فى بلاد الشام بوجه عام والقدس بوجه خاص فى ذلك العصر[٣] ٠

وبالإضافة إلى الفناء أو الصحن الذى كان يتوسط الربع ، فإن الطابق الأرضى منه كان عبارة عن عدة حوانيت ووكالات للتجار ، ولكل ربع باب يتصل مباشرة بسلم داخل

---

(١) د٠ على السيد على : "الرعاية الاجتماعية فى مكة المكرمة"، مجلة التاريخ والمستقبل ، كلية الآداب بجامعة المنيا ، يناير ١٩٩٦م ، ص ٢٤٥ ٠

(٢) د٠ فريد شافعى : العمارة العربية فى عصر الولاة ، القاهرة ١٩٧٢ ، القسم الأول ، ص٢٩ ٠

(٣) د٠ سعيد عاشور : العصر المملوكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٣م ، ص٤٤ ٠

واجهة البناء المشرفة على الطريق العام ، بواسطته يصعد السكان إلى مساكن الربع التى تؤجر لهم بأجور شهرية زهيدة ، ولقد تعددت هذه الرباع بشكل كبير فى مدينة بيت المقدس ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الربع الذى أوقفه السلطان صلاح الدين الأيوبى على الخانقاه الصلاحية وكان مجاورا لدار البطرك بالقدس[١] • كما أن الربع باعتباره مجمعا سكنيا كان مزودا بطاحون لطحن الغلال ، وفرن لإعداد الخبز اللازم للقاطنين ، وإسطبل لإيواء الدواب الخاصة بهم نظير رسم يتم تحصيله وأحيانا يزود بحمام، أو بعبارة أخرى فإن الربع بمشتملاته كان عبارة عن مبنى يكفى معظم احتياجات سكانه[٢] •

الخانات والرعاية الاجتماعية

ومن المنشآت التى كان لها دورها فى مجال الرعاية الاجتماعية "الخان"، وهى كلمة فارسية الأصل معناها "مخزن" ، ثم أصبحت تعنى النزل فى داخل المدينة أو خارجها على خطوط المواصلات • وسواء كان الخان داخل المدينة أم خارجها فهو المكان الذى يقدم خدماته للمسافرين للراحة ، وللتجار لقضاء بعض الأعمال • وفى خارج المدينة عادة ما كانت الخانات تبنى على هيئة قلاع ذات أبراج لحماية النازلين بها من مسافرين وتجار من قطاع الطرق ، وكانت مربعة الشكل ذات أبواب ضخمة ، وتحتوى على غرف للمسافرين ومخازن للبضائع ودكاكين وإسطبلات للحيوانات ، ومن أمثلة الخانات خارج مدينة القدس : الخان الأحمر بين القدس وأريحا ، وخان اللبن بين القدس ونابلس ، وخان المنية على بحيرة طبرية ، عمره الأمير تنكز ، وكان المسافرون من دمشق ينزلون فيه فى طريقهم إلى بيت المقدس[٣] •

وقــد بلغ عدد ما أمكننا التعرف عليه من خانات القدس فى ذلك العصر ستة عشر خانا ، من هذه الخانات ثلاثة وقفها ثلاثة من سلاطين المماليك وهم: الظاهر بيبرس ،

---

(١) د• العسلى : وثائق مقدسية ، جـ١ ، ص٩١-٩٢ •

(٢) المصدر السابق : نفسه ، جـ١ ، ص٩١-٩٣ •

(٣) أحمد سامح الخالدى : المعاهد المصرية فى بيت المقدس ،القدس ، ١٩٤٦ ، ص٩ ؛ د• العسلى : من آثارنا فى بيت المقدس ، عمان ١٩٨٢ ، ص٢٩-٤٠ •

وبرقوق ، والمؤيد شهاب الدين أحمد بن إينال ، وواحد وقفه الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام ، وآخر وقفه الأمير ناصر الدين بن دالغادر من أمراء سلاجقة الروم ٠ أما الخان الذى أنشأه السلطان الظاهر بيبرس عندما زار مدينة القدس سنة ٦٦٨هـ ، وعرف بخان الظاهر ، فقد أوقف عليه بعض القرى فى فلسطين وفى دمشق، وجعل به فرنا وطاحونا ، وشرط فيه أشياء من فعل الخير من تفرقة الخبز على بابه وإصلاح نعال النازلين به [١] ٠

أما الخان الذى أنشأه السلطان برقوق ويعرف بخان السلطان، فقد كان قيسارية فعمرها وحولها إلى خان ، وقد قام فان برشام بنشر وثيقة وقفه المسجلة على لوحة من الرخام على بابه فى أربعة سطور بخط النسخ جاء فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم جدد هذه القيسارية المباركة وقف حرم القدس ٠

الشريف مولانا السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق خلد الله ملكه ٠

بنيابة مولانا ملك الأمراء بيدمر كافل الممالك بالشام عز الله أنصاره ٠

إنشاء الفقير إلى الله تعالى السيفى أصنبغا بن بلاط ناظر الحرمين الشريفين فى سنة ثمان وثمانين وسبعمائة [٢] ٠

وهذا الخان هو الذى ذكره مجير الدين الحنبلى وسماه "خان الوكالة" فقال : "خان الوكالة وهو خان عظيم وقف على مصالح المسجد الأقصى ، يؤجر فى السنة بأربعمائة دينار ويباع فيه أصناف البضائع" [٣] ٠

وكانت الخانات فى العصر المملوكى تمثل استثمارات جيدة ، ولذلك فإن العديد من الأمراء ورجال الأعمال أنشأوا الخانات فى القدس ثم وقفوها على كثير من المؤسسات الدينية أو الخيرية ، أو على الفقراء عامة ، ابتغاء وجه الله تعالى ، ومنهم من وقف على الخانات أوقافا عديدة من عقارات وأراضٍ زراعية أو منشآت أخرى ، ينفق ريعها على

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٧٢م ، جـ٧ ، ص١٢١ ؛ مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ، جـ٢ ص ٤٣٤ ٠

(٢) Van Berchem : **Jerusalem Ville,** p. 300 .

(٣) مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص٥٢ ٠

تعمير الخان والإنفاق عليه • أضف إلى ذلك أن هذه الخانات كانت بها طواحين لطحن الغلال للنازلين بالخان وربما لأهل المنطقة المجاورة ، وبعضها كان به بعض الورش الصغيرة فى الدكاكين الممتدة بطول واجهة الخان للغزل والصباغة أو لصنع الزجاج ، وبعضها كان به معاصر لعصر الزيتون ، ومصابن لصناعة الصابون ، وتزويد النازلين بالخان وسكان المنطقة المجاورة باحتياجاتهم منها • وكما كان الكثير منها موقوفا على مصالح الحرمين فى القدس والخليل فإن البعض منها كان موقوفا على الحرمين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة . ووجد على بعض أبواب هذه الخانات عدد من الأسبلة تقدم الماء بل والطعام لعابرى السبيل مجانا ، وخصوصا تلك الأسبلة التى تقع على الطرق التى تربط بين القدس وغيرها من البلدان ، مثل: خان بنى سعد على الطريق المتجهة إلى نابلس[١] •

توفير الماء العذب

كانت مدينة بيت المقدس تشكو باستمرار من قلة الماء لعدم وجود أنهار بها ، حتى أن أهلها كانوا يشربون من خزانات "صهاريج" أعدت خصيصا لخزن ماء المطر ، ذلك لأن المدينة قائمة على تلال مرتفعة ذات طبيعة صخرية صلدة ، وكان جل اعتمادها على مياه الأمطار ، وعلى الينابيع الضئيلة الواقعة فى سلوان وهى قرية واقعة إلى الجنوب الشرقى من القدس ، وبعض البرك المحيطة بها مثل: بركة ما ملا غربى المدينة ، وبركة السلطان بين الخليل وبيت لحم ، وبركة حزقيا شمال شرقى المدينة ، وتسمى أيضا بركة البطرك أو بركة النصارى ، إلى جانب بركة إسرائيل وتعرف ببركة الضأن أو بركة الغنم[٢] •

وكان لدخول بيت المقدس تحت حكم سلاطين المماليك أثره الواضح فى ازدياد عدد السكان بها ، نظرا لما تمتعت به المدينة من أمن واستقرار ، فضلا عما أحاط بالعالم الإسلامى آنذاك من ظروف سياسية ساعدت على الهجرة إلى المدينة ، إلى جانب الظروف الاقتصادية وما كان لها من شأن ملحوظ فى التطور السكانى بها[٣] •

---

(١) د• العسلى : من آثارنا فى بيت المقدس ، ص٦٩-٩٦ •

(٢) عارف باشا العارف : تاريخ القدس ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥١م ، ص١٧٦-١٧٧ ؛ د• على السيد على : القدس فى العصر المملوكى ، ص٧٠ •

(٣) د• على السيد على : نفسه ، ص ٦٥-٧٠ •

لذا كان لابد من البحث عن مصادر جديدة للمياه لمواجهة زيادة السكان ، وتركزت هذه السياسة فى شقين ، الشق الأول وهو ضرورة الاستفادة من المياه الجوفية. أما الشق الثانى فهو البحث عن مصادر جديدة للمياه خارج القدس ٠ وفيما يتعلق بالمياه الجوفية ، فقد ركز سلاطين وأمراء المماليك جهودهم فى حفر كثير من الآبار فى شتى أنحاء المدينة ، وتركيب أعداد كبيرة من السواقى التى تجرها الجمال لرفع هذه المياه من باطن الأرض ، كغيرها من المدن التى ليست بها أنهار فى السلطنة[١] ٠ وتسبيل هذه المياه ليستفيد بها سكان المدينة وزوارها فى كثير من المنشآت الاجتماعية من أسبلة ، وحمامات ، وأحواض ، وسقايات ، ومطاهر أو مياضئ ٠

أما عن البحث عن مصادر جديدة للمياه خارج القدس فى الأودية المحيطة بها والقريبة منها ، وتجميع هذه المياه وتوصيلها إلى المدينة المقدسة عن طريق عدة قنوات أهمها: قناة السبيل أو قناة العروب التى كانت تأتى بالماء إلى القدس من عين العروب وبرك سليمان الواقعة فى وادى العروب بين الخليل والقدس ، وعلى بعد ٢٢ كيلوا مترا من القدس ، حيث ينبع الماء من سبعة عيون هى : فريديس ، وعد المزرعة ، والفوار ، وعين البص ، وعين البرادة ، وعين الدلبة ، وعين قوزينا ٠ ومن وادى البيار عند الكيلو ١٨ على طريق الخليل وفيه خمسة ينابيع هى : رجم السبيط ، ورأس العد ، وعين فاغور، وخربة القط ، وعين العصافير ٠ والمياه التى تتفجر من هذه العيون تصب فى برك سليمان الثلاث ، ثم يسير الماء منها إلى قناة السبيل التى تقوم بتوصيله إلى القدس[٢] ٠ وقد ذكر المقريزى هذا الإنجاز الكبير فى حديثه عن سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٢٧م بقوله : "وفيها كملت العين التى أجراها الأمير تنكز بالقدس بعدما أقام الصناع فيها مدة سنة ٠٠ وركب فى الجبل مجارى نقب لها فى الحجر حتى دخل الماء إلى القدس ، فكان لها يوم مشهود" [٣] ٠ وقد استمرت رعاية سلاطين وأمراء المماليك لهذا المصدر حتى نهاية العصر المملوكى[٤] ٠

---

(١) د٠ على السيد على : "الرعاية الاجتماعية فى مكة المكرمة" ص ٢٠٠-٢١٦ ؛ راشد القحطانى : أوقاف الأشرف شعبان بن حسين على الحرمين الشريفين ، الرياض ١٤١٦هـ ، ص١٥٦-١٩٥ ٠

(٢) عارف باشا العارف : نفسه ، ص١٧٩ ؛ د٠ العسلى : وثائق مقدسية ، جـ١ ، ص ١٠٥ ٠

(٣) السلوك فى معرفة دول الملوك ، جـ٢ ، ص ٣٠٢ ؛ د٠ رشاد الإمام : مدينة القدس فى العصر الوسيط ، تونس ١٩٧٦م ، ص ١٨٣ ٠

(٤) مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص ٤٤٥ ٠

ولقد وفرت هذه المصادر الجديدة الكثير من المياه حتى داخل المؤسسات الدينية والخيرية والثقافية ، من ذلك أن المدرسة التنكرية التى أنشأها الأمير تنكز بجوار الحرم القدسى الشريف عند الباب المعروف بباب السلسلة ، كان فى وسطها بركة مثمنة يجرى لها الماء من قناة العروب بحق واجب معلوم ، ولهذه المدرسة طهارة تشمل على خمسة بيوت أحدها مستحم ، وفى كل بيت منها جرن يجرى إليه الماء من قناة العروب المذكورة(١) • كما أنشأ الأمير نفسه بركة ماء عظيمة تقع داخل الحرم ما بين الصخرة والمسجد الأقصى ، وهى كبيرة وملبسة بالرخام(٢) بل لا نغالى إذا قلنا إن القدس ظلت تستقى الماء عن طريق برك سليمان هذه وعين العروب حتى سنة ١٩٢٦م ، عندما حلت محلها مياه عين فارة التى تبعد ١٤ كيلو مترا إلى الشمال الشرقى من القدس ، وبعدها حلت محلها مياه رأس العين فى سنة ١٩٣٥م والتى تبعد حوالى ستين كيلو مترا إلى الشمال الغربى من القدس(٣) •

الرعاية الصحية

أول ما يلفت النظر فى مجال الخدمات الصحية فى مدينة المقدس هو الاهتمام الفائق بوسائل الصرف الصحى أو المجارى ، والحقيقة أن نظام الصرف الصحى كان معروفا منذ العهد الرومانى ، ولقد ظهر من الحجارة المتنوعة التى استخدمت فى ترميم شبكة الصرف الصحى وإصلاحها شدة عناية سلاطين وأمراء المماليك بها ، وأنها رممت عدة مرات فى ذلك العصر ، حتى يتيسر لسكان المدينة التخلص من الأقذار وتصريفها ، وأن نظام المجارى هذا ما زال يسير على أحسن وجه حتى القرن العشرين ، مما ساعد على حفظ المدينة من كثير من الأمراض(٤) •

كذلك كان بالقدس عدد من البيمارستانات التى أدت الكثير من الخدمات الصحية ، إذ يرجع وجود البيمارستان فى القدس إلى أيام الفاطميين ، حيث يذكر الرحالة ناصر خسرو الذى زار المدينة سنة ٤٣٧هـ/ ١٠٤٥ قوله : "وفى بيت المقدس مستشفى عظيم

---

(١) د• العسلى : وثائق مقدسية ، جـ١ ، ص ١٠٩-١١٠ •

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ ، القاهرة ١٩٣٩م ، جـ١٤ ، ص ١٣٣ ، د• رشاد الإمام : نفسه ، ص ١٨٤ •

(٣) عارف باشا العارف : نفسه ، ص ١٨٠ •

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٠٣ ؛ Murray : **Syria and Palestine**, London 1858, Vol. I,p. 136 .

عليه أوقاف طائلة ويصرف لمرضاه العديد من العلاج والدواء وبه أطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف ، وهذا المستشفى ومسجد الجمعة على حافة وادى جهنم" [١] ٠ وفى العصر الأيوبى كان هناك "البيمارستان الصلاحى" الذى أنشأه صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، واستمر يؤدى وظيفته طوال العصر المملوكى [٢] ٠ ولقى الكثير من العناية من سلاطين وأمراء المماليك ، بل وأهل الخير . فالوثيقة رقم ٢٠ من وثائق الحرم القدسى الشريف والمؤرخة فى ٥ صفر سنة ٧٦٨ هـ تخبرنا أن أحد تجار بيت المقدس أوقف دارا على مصالح البيمارستان الصلاحى على أن ينفق من ريع هذه الدار لشراء أدوية للمرضى ، وأغذيتهم ، وأغذية المجانين وأدويتهم ، وسائر ما يحتاجون إليه . وإذا كان صلاح الدين قد حرص على تشييد هذا البيمارستان لكى يستفيد من خدماته أهل القدس، فإن هذا التاجر قد شارك بدور فعال فى المحافظة على ذلك البيمارستان وعلى أن يستمر فى أداء رسالته بعد صلاح الدين بأكثر من مائة وسبعين سنة [٣] ٠

كما أن الوثيقة رقم ٣١١ والمؤرخة فى ٢٥ صفر سنة ٧٤٥هـ تذكر أن أحد أمراء المماليك ويدعى بكتمر الجوكندار قد أوقف قرية مجدل فضيل من عمل مدينة الخليل على مرضى المسلمين الفقراء والمساكين الذين يترددون على هذا البيمارستان ، وتوزع عليهم الأدوية والعقاقير بلا مقابل ، كما كان يتردد عليه الجرحى من الجنود [٤] ٠ وتلقى الوثيقة رقم ٣٦ المؤرخة فى ١٧ محرم سنة ٧٩٧هـ الضوء على إحدى المنشآت الاجتماعية وهى التربة التى أنشأها الأمير بدر الدين بن حسام الدين بركة خان ، وأوقف عليها قرية دير الغصون فى طولكرم ، ومن ريع هذه القرية كان ينفق على التربة وما تقوم به من أعمال الخير من مداواة المرضى وتجهيز الموتى بالقدس الشريف ، وبهذا لم تقتصر هذه التربة على كونها مدفنا لهذا الأمير وذريته من بعده ، بل غدت واحدة من المنشآت الاجتماعية الهامة

---

(١) ناصر خسرو على : سفر نامه ، نقله للعربية وقدم له ٠د٠ يحيى الخشاب ، طبعة أولى ، القاهرة ١٩٤٥م ، ص٢١ ٠

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، طبع مطبعة الآداب بمصر ١٣١٧هـ ، ص ٢٤١؛ مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ، جـ١ ص٣٤٥ ؛ جـ٢ ، ص ٥٨٩-٥٩٠ ٠

(٣) د٠ العسلى : وثائق مقدسية ، جـ١ ، ص ٢٣٥ ؛ د٠ محمد عيسى صالحية : وثائق الحرم القدسى الحولية الخامسة لكلية آداب الكويت ، ١٩٨٥م ٠

(٤) د٠ العسلى : نفسه ، جـ١ ، ص ١٨٣-١٨٦ ؛ أحمد سامح الخالدى ، المعاهد المصرية ، ص٦ ٠

بما قدمت من خدمات ، وما حوته من أحواض للدواب ، وحوانيت ، هذه التربة أصبحت منذ سنة ١٩٠٠م المكتبة الخالدية [١] .

أما فيما يتعلق بأهل الذمة فإنه من الواضح أن كثيرا من أبناء الطوائف المسيحية كانوا يترددون على تلك المنشآت الصحية ، كما كانت لهم مستشفياتهم الخاصة ، والملحقة بالكنائس والأديرة ، سواء من الطوائف المحلية ، أو من أبناء الغرب الأوربى مثل: طائفة الفرنسيسكان والتى كان لها فى الدير الخاص بها فى جبل صهيون مستشفى يستقبلون فيه المرضى من زوار المدينة وسكانها [٢] .

كذلك تجلى دور المثقفين وبخاصة المشتغلين منهم بالطب فى الاهتمام بالمستوى الصحى لأهل القدس ، وكيفية معالجة كثير من الأمراض التى كانت شائعة آنذاك مثل "الإسهال" و"السعال" و"أمراض الكلى" وغيرها ، عن طريق كثير من الوصفات الطبية التى اعتمدت على الثوم ، وصفار البيض ، والتين ، وزيت الزيتون ، والصمغ العربى ، والمسك ، والكمون ، وبعض الأعشاب الطبية ، والطين الأرمنى. فالوثيقة رقم ١٨٢ من مجموعة وثائق الحرم القدسى عامرة بكثير من الأمور المتعلقة بهذه النواحى [٣] .

الحمامات والرعاية الاجتماعية

الحمام منشأة حضارية هامة عرفتها مدينة بيت المقدس فى تاريخها الإسلامى منذ القرن الأول للهجرة ، ولقد كان اهتمام أهل القدس ببناء الحمامات راجعا إلى أسباب صحية ودينية ، لأنها كانت ضرورية لطهارة الجسم وصحته . وازداد عدد حمامات القدس فى العصر المملوكى زيادة تتناسب مع زيادة عدد السكان ، ولقد تم إحصاء ١٣ حماما فى أواخر العصر المملوكى . غير أن المصادر الأدبية والآثار لم تسعفنا لمعرفة العدد الحقيقى للحمامات التى كانت بلا شك أكثر من ذلك فى بدايات العصر المملوكى.

كان الحمام مركزا من مراكز الحياة الاجتماعية ، فكثير من المناسبات الهامة فى حياة الناس كانت مرتبطة به . فالعروس تذهب للحمام لتستحم وتزين نفسها، ثم لتعرض

---

(١) د. العسلى : نفسه ، جـ١ ص ٢٣٩ .
(٢) د. على السيد على : القدس فى العصر المملوكى ، ص٢٥٠ .
(٣) د. العسلى : نفسه ، جـ٢ ، ص٢٧٩ .

ملابسها ومصوغاتها أمام الصديقات ، وكانت النساء يستعملن الحمام كصالون للتجميل، والمرأة الحامل كانت تذهب إليه كثيرا لتسهيل عملية الولادة ، ثم تأتى إليه فى اليوم الأربعين بعد الولادة ٠ وكان العريس يذهب إلى الحمام قبل الزواج ، والولد يرسل إليه قبل الطهور ٠ كما كانت الحمامات تستعمل كمنشآت صحية للعلاج من بعض الأمراض المختلفة ، مثل: "حمام الشفا" والذى كان يقع داخل سوق القطانين بالقرب من الحرم الشريف ، وتستخدم فيه المياه المعدنية[١] وفى مثل هذه الحمامات موظفون مختصون بالمعالجة ٠ ومن جهة أخرى كان الرجال والنساء يعقدون المجالس فى الحمامات للحديث والتسلية والغناء ، وكانت هناك أوقات مختلفة لكل من الرجال والنساء فى الحمامات ، فى حين أن بعض الحمامات كانت تخصص للرجال دون النساء وبالعكس[٢] ٠

كما كان يرتبط بالحمام فى بيت المقدس قصص وأساطير شعبية كثيرة ، خصوصا ما يتعلق بامتزاج مياه الحمامات بمياه زمزم يوم عاشوراء ، وبكون الحمامات من الأماكن المسكونة بالجن أو بقدرة بعض الحمامات على شفاء العواقر من النساء ، أو شفاء أمراض أخرى ٠ كما كانت هذه الحمامات تدر دخلا جيدا ، فقد عرفنا من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس أن أجرة الحمام فى أواسط القرن العاشر الهجرى / السادس عشر للميلاد عن كل رجل درهم[٣] ٠ كذلك جاء فى الوثيقة رقم ٤٦ من وثائق الحرم القدسى المؤرخة فى ١٩ محرم سنة ٧٤٧هـ والخاصة بحمام البطرك الذى كان جاريا فى أوقاف الخانقاه الصلاحية بالقدس ، أنه تم تأجير هذا الحمام لمدة سنة على أن يدفع المستأجر الإيجار يوميا من الدراهم النقرة الجياد الوازنة معاملة يوميذ عن كل يوم يمضى من تاريخه ثلاثة عشر درهما يدفع منها عند غروب شمس كل يوم من يوم تاريخه عشرة دراهم ، بينما الثلاثة دراهم الأخرى تخصم نظير دخول الصوفية واغتسالهم فى الحمام المذكور ، كما دفع المستأجر مبلغ ثلاثمائة درهم قسط شهر كامل من يوم تاريخه ، وتعهد المستأجر بنقل الماء إلى الحمام من بركة كبيرة مجاورة للحمام فى حارة النصارى بالقدس وهى بركة البطرك ،

---

(١) مؤلف مجهول : رحلة إلى فلسطين والقدس ونابلس وما فى بلاد الشام ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٧٥٤ جغرافية ، ورقة ٦٦ ؛ د٠ على السيد على : القدس ، ص٢٤٥ ٠

(٢) د٠ العسلى : من آثارنا فى بيت المقدس ، ص ١٦٣-١٦٧ ٠

(٣) عن ذلك انظر السجل رقم ٧ ، ص ٢١١ ؛ د٠ العسلى : من آثارنا فى بيت المقدس ، ص ١٧١ ٠

وكذلك التخلص من الرماد الخاص بالمستوقد والفرن على نفقته الخاصة ، بينما يقوم الناظر على الوقف بكل الإصلاحات والعمارة اللازمة للحمام[١]. ولهذا السبب كانت الحمامات على جانب كبير من الأهمية فى وقفها على كثير من المنشآت مثل: المسجد الأقصى والصخرة والمدارس والخوانق وغيرها ، ومن ريعها قامت هذه المنشآت بدورها فى مختلف مجالات حياة سكان القدس وزوارها سواء فى حياة من أوقفوا هذه الحمامات أو بعد مماتهم إلى أن وقعت المنطقة كلها تحت سيطرة العثمانيين وسطا أكلة الأوقاف عليها، فلم تجد معظم تلك المنشآت ما يكفل لها البقاء والاستمرار وتعطل كثير منها عما كان وقف عليه[٢].

سداد دين المدينين

وأخيراً نأتى إلى جانب هام من جوانب الرعاية الاجتماعية وهو سداد دين المدينين، فالوثيقة رقم ٢٣٢ من وثائق الحرم القدسى ، تذكر أن أحد سكان بيت المقدس من الفقراء ويدعى يعقوب ، أرسل إلى قاضى القدس الشافعى باعتباره ناظرا على الأوقاف ، يطلب منه صدقة لأنه فقير وفى عائلة كبيرة ، وأنه أصبح فى دين ، وليس لديه ما يرهنه أو يبيعه لكى يسدد ديونه أو ينفق على أسرته ، ويطلب من القاضى أن يعينه بصدقة من أى جهة كانت ليسدد ما عليه من ديون وينفق على أولاده . ومن المرجح أنه كانت هناك حالات كثيرة مثل تلك الحالة التى وردت إلى ذلك القاضى ، واستجاب لها وخصص لها ما يراه حسب اجتهاده[٣].

* * *

(١) د. العسلى : وثائق مقدسية ، جـ١ ، ص٢٤٥-٢٤٦ .

(٢) كرد على : خطط الشام دمشق ، ١٩٢٥ ، جـ٦ ، ص ١١٧ ؛ د. سعيد عاشور : "بعض أضواء جديدة على مدينة بيت المقدس ". بحث مقدم للمؤتمر الدولى الثالث لتاريخ بلاد الشام ، أبريل ١٩٨٠م ، ص ٢٣ .

(٣) د. العسلى : وثائق مقدسية ، جـ١ ، ص ٢١٥-٢١٦ .